مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندى قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدله غيرى. وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبدا، ولابد من تذكر الغاية التى جاء بها فى قوله الحق :

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا، لهم دار السلام، وهو أسلوب مكون - كما يقال - من مبتدأ وخبر، الا أن المبتدأ أُخرٌ هنا، والخبر تقدّم، وكان المنطق أن يقال : «دار السلام لهؤلاء» ولكن الأسلوب القرآنى جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق، وهى أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و«دار السلام» مكونة من كلمتين، «دار» ومعناها ما يستقر فيه الإنسان، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان، وهى أوسع قليلاً من كلمة «بيت» ؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة، لكن كلمة «دار» تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها.

و«دار» هنا مضافة إلى السلام، وهو - كما نعلم - اسم من أسماء الله ، إذن فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه، فإذا كانت الدار التى وعدها الله هى دار السلام وهو الله ، فلا بد أن فيها متعاً وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : «دار الله »؟ ؛ لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان.

وهناك فرق بين دور الدنيا، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تفوت أنت ما هى فيه، وإما أن يفوتك ما فيها، ولذلك لا يوجد فى الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد يناوئك فيها ويعاديك، وقد تأتى لك مكدرات المرض، وقد تأتى لك معكرات الأعداء، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام فى الدنيا. ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنت، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التى كانت فى دار الدنيا .

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢٧) ﴾

[سورة الأنعام]

وكأن دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون، ولكنها جاهزة معدة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين، وسبحانه قد خلق جناناً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه، على فرض وتقدير أنهم كفروا. وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويرثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا فى الدنيا.

﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (١١) ﴾

[سورة المؤمنون]

فلم يخلق الحق جناناً محدودة، لا، بل أعد وهيأ من الجنان ما يتسع لكل الخلق إن امنوا، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا. ومادامت العندية منسوبة إلى الله فهى عندية مأمونة.

وبعد ذلك أيتخلّى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعدّه لهم ؟ . لا، بل قال :

﴿ .. وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) ﴾

[سورة الأنعام]

فهناك إعداد، ثم قيومية ولاية الله ، وهذه القيومية لله، هى للمؤمنين فى الدنيا. لكن فلنلاحظ أن الولاية فى الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله، لكن فى الآخرة هناك الجزاء الذى لا يكله الله للأسباب، فتكون الولاية مباشرة له ؛ لأنه سيعطيك فوراً، وإذا خطر أى شىء ببالك تجده حاضراً : فهى متعة على غير ما ألف الناس ؛ لأن الناس يتمتعون فى الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن فى الآخرة فلا ملكية لأحد حتى فى الأسباب، لذلك يقول سبحانه :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦) ﴾

[سورة غافر]

وستجد الإجابة هى قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو الولى الذى يليك ، قرباً تنتفع به ، فلا تضطر حتى أن تنادى عليه ليأتى لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك فى الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك فى الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ؛ فالعمل فى الدنيا هو الزرع وهو الحرث لثمرة الآخرة . ولكن أيعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إننا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا فى الدنيا . فكأننا نعمل فى الدنيا لنؤدى شكر ما أفاء علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه ، ولذلك يوضح الحق لنا : إياكم حين توفقون فى العمل أن تفتتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا أن ذلك فضل من الله :

﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨ ﴾

(سورة يونس)

وقد شرح النبى عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« لن يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة »[1] .

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ؛ فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله أو كماله أو يزيده صفة أو يزيده ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بنى جنسك .

ولذلك نجد الإمام الرازى ـ رضى الله عنه ـ يقول : إن العمل فى ذاته يورث

(١) رواه مسلم فى المنافقين واللفظ له ، ورواه البخارى فى الرقاق والمرضى ، وابن ماجه فى الزهد ، والدارمى فى الرقاق ، ورواه أحمد فى المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦

الذات شيئا من الصفاء الذى ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزاء فى الراحة ، والراحة النفسية هى الأمر المعنوى الذى يوجد فى بنية مادية هى قالبك . فساعة يوجد شىء فى النفس فهو يؤثر فى القالب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره فى البنية نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإنسان للانفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوى لكنه أثر فى البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرّك ، يظهر ذلك فى البنية أيضاً ؛ فتشرق وتتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر فى البنية ، والبنية تؤثر فى العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وساعة تسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أى أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أى اليوم الذى يقف فيه الجميع ويحشدون ، وحين ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء « يا معشر الجن » وهذا « نداء » . فكأن الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضى منادِيًا ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإنس ،وقولاً يبرز صورة النداء . فكأن العبارة هى : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإنس ، و« الحشر » هو الجمع ، و« المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعايش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ؛ يا معشر التجار ، يامعشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهى جماعة مختلطة اختلاط تعايش ومعاشرة .

﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ .. (١٢٨) ﴾ [سورة الأنعام]

و«استكثر» أي أخذ منه كثيراً ، كمن استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصدقاء ؛ فمادة «استكثر» تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعني استكثارهم من الإنس؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصون ، والأصل في العصيان في الجن «إبليس» الذي أقسم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [سورة ص]

فكأن الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ، لأنهم إذا أطاعوكم في الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ماكان يحدث ، فكان الإنسان إذا مانزل وادياً مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادي -من الجن- ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحينما يوسوس له شيء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثار .

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. (١٢٨) ﴾ [سورة الأنعام]

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواءً وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم يحققون لهم شهواتهم في صورة تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضى فيهم غريزة الانقياد التديني ؛ لأن كل نفس مفطورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قرنائه وجدهم أبناء أغيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنياً وغداً فقيراً ، فما الذي يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار؟ .

إن الإنسان يحب أن يلجأ ويرتبط بقويّ ؛ حتى إذا جاءت هذه الأغيار كانت

سنداً له . إلا أن هناك من يصعدها في التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمطلوبات هذا الإيمان في «افعل» و«ولا تفعل» . لكن الأشياء التي يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكاليف إلا أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أي حمل النفس على الكذب لايدوم طويلاً ؛ لأن الإنسان لايغش نفسه ؛ فالإيمان يحمى النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك ، وليس هناك من يقول : ياشمس أو يا قمر ، ياشيطان أو يا صخر ! لايمكن ؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾

[سورة يونس]

وهنا يقول الحق عن الإنس :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا .. ﴿١٢٨﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

أي أن هذا الاستمتاع أمداً ، هو أمد الأجل أي ساعة تنقضي وتنتهي الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق :

﴿ .. قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

و«الثواء» هو الإقامة ، و«مثواكم» أي إقامتكم ، «إلا ماشاء الله » وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، دار فيه كلام طويل ؛ فهناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : «إلا ماشاء الله » أي أن له طلاقة القدرة والمشيئة ؛ فيفعل مايريد لكنه حسم الأمر وحدد هو «ماشاء» فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة النساء]

وهنا حدد«ماشاء» ، أى أن ماشاء يكون فى غير الشرك به فإن الشرك لايكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز«إلا ماشاء الله » أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى فى النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الزمن الخلودى ، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب . فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود فى الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً«إلا ماشاء ربك»فى سورة هود حيث يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [سورة هود]

إذن فهناك الاستثناء فى النار والاستثناء فى الجنة ، فقول الحق : «خالدين فيها مادامت السموات والأرض «إلا ماشاء ربك» فمجيء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على إن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فى النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك؟

والرد على هذا أن أهل النار لايخلدون فى عذاب النار ، وحده بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بماهو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم ولعنهم وطردهم وإهانته إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ماهو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم مايتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة ممالايعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته : (إن ربك فعال لمايريد) أن ربك يفعل بأهل النار مايريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة الذى لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله : «إن ربك حكيم عليم» . حكيم فى أن يعذب ، عليم بمن يستحق أن يعذّب ، ومقدار عذابه ، وعليم بمن يستحق أن يثاب وينعم ، وبمقدار ثوابه ونعيمه ، وحكيم فى أن يرحم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

«وكذلك» تشير إلى ماحدث من الجن والإنس من الجدل ، فقال الحق على ألسنة الإنس :

﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ولم يأت بكلام الجن ؛ لأن كلامهم جاء فى آيات أخرى ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة إبراهيم]

وكذلك أورد الله مايجىء على لسان الشيطان فى سورة أخرى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ .. ﴿١٦﴾ ﴾

[سورة الحشر]

وكذلك جاء الحق فى آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا :